علاقة القبائل الهلالية بأزمة أفريقية في القرن الخامس للهجرة

أ.م.د. غالب ياسين الفرحان
مديرية التربية في الانبار

خلاصة

تناول هذا البحث دراسة علاقة القبائل الهلالية بأزمة أفريقيا في القرن الخامس الهجري وآراء المؤرخين الين عاصروا أحداث هذا القرن ومدى توثيقهم لتلك الأحداث توثيقاً دقيقاً مثل ابن الأثري والمراكشي والنويري وابن خلدون وقد كان للمؤرخ ابن خلدون الإسهام الأكبر كونه من ابر المؤرخين العرب المسلمين اهتماماً بالهجرة الهلالية الى افريقيا كما بينت هذا البحث بأن القبائل الهلالية لم تكن السبب في دمار المنطقة وتخريبها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً كما ورج له بعض المستشرقين والمؤرخين المحدثين واعتمادهم على ما جاء به ابن خلدون كما أوضحت الأسباب التي أدت إلى دخول بني هلال إلى افريقيا وسيطرتهم على القيروان سنة ٤٥٠هـ.

Summary

This research study semicircular tribes relationship crisis in Africa in the fifth century, and the opinons of historians who have lived through the events of this century and the extent of documenting these events documented accurate like milk other and Marrakech and Noueiri and ibn Khaldun was to Morg ibn Khaldun's biggest contribution to being one of the most prominent Arab historians Almsamin attention to immigration semicircular to Africa also of the showed that this rsesarch Apsis sabotage, politically, economically and socially hyped as some moder historians and Orientalists ad their dependence on what it says ibn Khaldun also explained the reasons that led to the entry Bani Hilal to Africa and control of kairouan in 450 AD.

المقدمة

إن المتصفح للأعمال المتعلقة بتاريخ أفريقية ، يلحظ كيف أن جلّها لم يكتف بتضخيم إمكانيات المنطقة الاقتصادية قبل قدوم قبائل بني هلال ، بل نراه وحتى يؤكد الآثار السلبية التي نسبت إليهم . والذي ميّز تاريخ المنطقة في القرون التي تلت الهجرة الهلالية ، بدخول هذه القبائل الى أفريقية في القرن الخامس الهجري.

غير أن دور بنو هلال في تاريخ المنطقة لم يكن باستمرار دوراً سلبياً ، فعديد الإمارات التي شيدت المدن ورعت المؤسسات في تاريخ المغرب الوسيط كانت من تأسيس شخصيات هلالية.

وإذا ما عجز الهلاليون عن تكوين إمارة في بلاد المغرب ، فذلك لا يعود الى الطبيعة البدوية التي ترفض الاستقرار وتفضل أعمال التخريب التي بالغ ابن خلدون في تحديد حجمها ، فدخول القبائل العربية الى أفريقية ذات الخلفية المعقدة اجتماعياً وعقائدياً ، لم يجعل مهمة الوافدين الجدد سهلة . فقد جرت عادة قيام الإمارات في المنطقة ، أن تلتف هذه القبيلة أو تلك الى حول هذا الداعي أو ذاك في مناطق بعيدة عن عيون السلطة المركزية القائمة. وعند اشتداد عودة الأتباع تتجه أنظار هذه القوة الجديدة نحو مركز هذه السلطة فتطيح بها وتحل محلها.

ولكن عامل العصبية القبلية الذي وحَد عرب القرن الخامس الهجري على أهميته ، كان غير قادر على تأسيس إمارة أو حتى القضاء النهائي على الحكم الزبري. فالعصبية القبلية ، ووفقاً للرؤية المقترحة في هذا العمل قادرة فقط على زعزعة هذا النظام أو ذاك . ولكنها في حاجة الى عقيدة أو أيدلوجية توحد صفوفها . والأهم من ذلك أن تقنع غيرها بتبني مبادئها . لذلك فإنني أعتقد بأنه باتجاه هذين العاملين العصبية والعقيدة وباتحادهما فقط تقوم الكيانات السياسية وبضعفهما تتدهور، فتسقط.

إن هذه العلاقة بين هذين العاملين في حالتي القوة والضعف شكلت حسب اعتقادي ملامح تاريخ المغرب الوسيط . وهذا المقترح لا يلغي بطبيعة الحال الآراء والتفاسير الأخرى المقترحة من قبل العديد من المؤرخين . فالمد الهلالي له علاقة بأزمة أفريقية في القرن الخامس الهجري ، وسيطرة صنهاجة على مصادر الذهب كانت له آثار سلبية على اقتصاديات المنطقة ، كما أن الأزمات الطبيعية والكوارث لعبت هي الأخرى دوراً سلبياً لا يقل خطورة عن العاملين السابقين.

علاقة القبائل الهلالية بأزمة أفريقية في القرن الخامس الهجري:

لقد وثق المؤرخون العرب الأوائل ، وأخص بالذكر منهم ابن الأثير والمراكشي والنويري وابن خلدون أحداث القرن الخامس الهجري توثيقاً دقيقاً . وعلى الغم من التفاصيل المتنوعة والمتعددة ايضاً التي تضمنتها هذه الأعمال، فإنها لا تتردد في تحميل القبائل بني هلال مسؤولية خراب المنطقة. فيذكر ابن الأثير أنه بنزول العرب أفريقية " شنوا الغارات وقطعوا اطرق وافسدوا الزرع وقطعوا الثمار" [١] ، وأنه بانهزام المعز بن باديس فاراً الى المهدية سنة ٤٤٩ هـ أشرعت العرب في هدم الحصون والقصور ، وقطعوا الثمار وخربوا الأنهار [٢].

أما عبد الواحد المراشي فيذكر أنهم " عاثوا في القيروان عبثاً شديداً أوجب خرابها " [٣]. في حين أن النويري يذكر أنهم عند حصار القيروان " أشرعوا في هدم الحصون والقصور وقطع الثمار وتعمية العيون وخراب الأنهار " [٤]، إلا أن ابن خلدون قد عدَ من أبرز المؤرخين العرب المسلمين اهتماماً بالهجرة الهلالية الى أفريقية وبلاد المغرب عامة ، وتأكيداً على دورهم التخريبي. وحيث أن ابن خلدون يعد من أكثر المؤرخين اهتماماً بالهجرة الهلالية رأيت أن أفرد لآرائه جزء أكبر . فوفق رؤيته المُدينة لبني هلال يعتبر ابن خلدون البدو من ألد أعداء الحضارة ، مرجَعاً كل خراب ألمَ بالمنطقة الى القبائل البدوية ، فيفيد بأن " أفريقية والمغرب لما أجاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة تمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين . قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها ، بعد أن كان بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدر "[٥]. فالقبائل العربية حسب زعمه كثيرة التنقل ، ولا تقيم كبير وزن للمؤسسات القائمة . فمن أجل استخدام الحجر آثاف لقدورهم " ينقلونه من المباني ويخربونها عليه ... والخشب أيضاً ، إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ،ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذل ، فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران " [٦].

كما أن ازدراء ابن خلدون لهذه القبائل واحتقاره لها جعلهلا يتردد في وصفهم بأبشع الأوصاف ، فدخول هؤلاء الذي اقترن بخراب المنطقة يشبهه ابن خلدون بالجراد الذي يأتي على الأخضر واليابس . فهذه القبائل حسب زعمه زحفت على أفريقية " كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه حتى وصلوا الى أفريقية سنة ٤٤٣هـ " [٧].

إن نظرة ابن خلدون هذه للبدو عامة وبدو بني هلال خاصة من الأهمية بمكان. إذ اعتمدت عليها ثلة من المستشرقين أمثال غوتيه ، شارل أندريه وليان ، روجي إدريس ، أرشيبالد لويس ، بوفيل ... مؤكدين ليس فقط على البعد التخريبي للعرب والبدو عامة ،بل مسؤوليتهم في أزمة أفريقية الاقتصادية في القرن الخامس للإسلام.

ويعد غوتيه من أبرز هؤلاء المستشرقين مناوأة للبدو . فيذكر العروي أنه اعتبرهم عى الدوام " عنصر تخريب وفوضى وثورة دائمة على كل سلطة منظمة قارة "[٨] . فغوتيه وصف بنو هلال بقوله " الذئاب العرب " ٩( ). وذكر دخولهم بلاد المغرب بأنه " كارثة أفضع من ارثة الخوارج التي حلت به " . وأنه بقدومهم تفشت جرثومتهم بشكل فضيع في أنحاء البلاد " [١٠] ، وحذا شارل أندريه جوليان حذو غوتيه ، ناعتاً بني هلال العربية بالنهابين ، واصفاً هجرتهم بأنه كانت " بلا منازع أهم حدث عرفته بلاد المغرب أثناء القرون الوسطى " [١١]. وحملهم مسؤولية تحول اقتصاد افريقية من اقتصاد زراعي الى اقتصاد رعوي ، معللاً ذلك بأن قدومهم المنطقة تسبب في تعميم النمط البدوي الذي عمل على تحويل الأراضي المعدة لزراعة الحبوب والخضر والأشجار المثمرة الى غير ما جعلت عليه . واختفت قرى ومدن صغيرة وخربت ولم تسلم إلا الأراضي الفلاحية الكائنة على طول الساحل حول المدن الباقية أو داخل الجبال التي أحاط بها الزحف العربي دون أن يفتحها [١٢].

أما روجي إدريس وفي سياق حديثه عن الهجرة الهلالية ونتائجها وصف دخول بني هلال الى أفريقية بالكارثة السياسية أو على حد تعبيره " الكارثة الخارقة للعادة" .[١٣]

ولم يتخلص هذا الدارس من أسر تفاسير ابن خلدون ، بل نراه يؤكد دور الهلاليين في تدمير مقومات أفريقية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية[١٤] ، وفي إطار نظرة أرشيبالد لويس العامة للبدو في جميع المناطق شرقاً وغرباً ، يرى أن بدو بني هلال(البتشناغ والسلاجقة والأتراك والمرابطين) قبائل رحَل خربوا كل حضارة مستقرة . كما حمَلهم – كغيره من المؤرخين – وحدهم مسؤولية الخراب . فالأنظمة " الدقيقة التي وضعها القرطاجيون والرومان للري والزراعة بتلك البلاد لم يدركها الفساد والانحلالإلا في أواخر القرن الحادي عشر وليس قبل ذلك " .[١٥]

أما بوفيل فقد اعتمد ما ذهب إليه ابن خلدون من أن الهلاليين دخلوا أفريقية كأسراب " الجراد التي تلتهم كل البقاع التي تمر بها .. [ويذكر أن] من أهم نتائج هذه الأعمال التخريبية أن تعطلت مناطق شاسعة عن الزراعة تعطيلاً مستديماً. وزحفت عليها الصحراء. وقد عمد هؤلاء الأعراب الجفاة الى أن يدمروا كذلك معظم الغابات رأساً بأنفسهم أو عن طريق قطعانهم .."[١٦]

ولئن كتب المستشرقون الأوائل عبر تاريخ بلاد المغرب وفق رؤية استعمارية ، عمدت الى التأكيد على بداوة العرب وعدم تحضرهم لإيجاد تبريرات للتدخل الاستعماري في المنطقة ، فإن هذه الرؤى تداولها عدد من المؤرخين المحدثين العرب . وبدلاً من أخذ هذه الرؤى بالتمحيص والتحليل وإعداد دراسات تاريخية موضوعية تهدف الى الخروج بتاريخ العرب من دائرة التخلف التي فرضت من قبل العديد من المؤرخين المستشرقين الأوائل ، اتبع بعض المؤرخين العرب خطاهم وتفسيراتهم والتي استمدت شرعيتها من مقدمة ابن خلدون.

فلا يتردد حسين مؤنس في تشبيه دخول بني هلال الى أفريقية بالطوفان . فهذا الأخير أطنب في تعديد مساوئ بني هلال محملاً إياهم مسؤولية تخريب أفريقية وما والاها حتى تلمسان . وقد رأيت نقل ما ذكره حسين مؤنس لإبراز أهمية هذه الرؤية . فيرى حسين مؤنس " أن العرب عندما دخلوا افريقية كانوا في الغالب فرساناً على ظهور الخيل . وتكفي الفئة القليلة منهم للسيطرة على الإقليم الكبير .والى هذا يعزى تغلبهم الشامل على البلاد . ولا يرجع قط الى ضعف عزائم أهل البلاد وقعودهم عن الذود عن أوطانهم . ثم أن أهل الأرياف والضواحي من أهل الزرع والضرع في العادة قوم مسالمون لا ينتظرون الأذى إلا من الزعَار وقطاع الطرق وهم قلة ... وقد فاجأهم هذا الطوفان الشامل من العرب الذين وجدوا أمامهم بلاداً واسعة تعجبهم وتناسب طبعهم. ولا يكاد يحميها أحد . فرتعت خيولهم كيف شاءت وضربت على الناس في كل مكان . وأنزلوا بالناس والمزارع والقرى أشد ضروب الأذى وهم في سكرة بقوتهم واستقلالهم عن أي سلطان ، فصالوا وجالوا كيف شاؤوا . وكانت النتيجة التخريب الشامل الذي شمل برقة وطرابلس وافريقية والمغرب الأوسط وحتى تلمسان " .[١٧]

أما حسن علي حسن الذي اعتمد على مقدمة ابن خلدون ، فقد أتى رأيه مؤيداً للبعد التخريبي الذي ألصق ببدو بني هلال ، فيفيد بأن الآثار " المدمرة التي حلت بالمنطقة كانت نتيجة لتخريب المدن وحرق المزارع في هجمات متلاحقة أتلفت التقدم العمراني الذي كانت تتعم به أفريقيا " [١٨]. ويذهب الى أبعد من ذلك فيذر صراحة أن هجرة بني هلال كانت بمثابة حركة غزو مسلح إذ " حملت في طياتها الكثير من ألوان الدمار والخراب " .[١٩]

كما يمكن الاستشهاد ببعض الدارسين الذين اعتمدوا بدورهم في تفسير هذه الظاهرة اعتماداً كلياً أو شبه كلي على مؤلف ابن خلدون ، أذكر من بينهم سعد زغلول عبد الحميد والسيد حنفي عوض ومحمد المهدي والتقي العلوي .فسعد زغول عبد الحميد ، وإن كان في الأغلب لا يدلي برأيه في الهجرة ، فإنه أبرز الوجه السيئ لبدو بني هلال ووصف أعمالهم بالفساد .[٢٠]

أما السيد حنفي ومحمد المهدي ، فبالرغم من أنهما نبها الى ضرورة إعادة النظر في تاريخ بني هلال الذين وصفوا بالهمجية ، فإننا نجدهما يحذوان حذو غيرهما من الباحثين ، فيلقيان باللوم والمسؤولية على بدو بني هلال في الدمار الذي شهدته أفريقية ، فيشيران الى أن بدو بني هلال قد قوضوا صرح بلاد افريقية وجعلوها تعيش اضطرابات كبرى ،إذ انهار عنصري

الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي وتفرق شمل المنطقة " ونكبت أفريقية نكبة اقتصادية كانت بعيدة الأثر في تاريخها كله " .[٢١]

وإذا ما اعتبرت آراء ابن خلدون مجحفة بحق البداوة ، وهي آراء تبناها العديد من المؤرخين المحدثين ، فإن وجهة نظر التقي العلوي وهو من المحدثين أيضاً تميزت عن غيرها بشدة المغالاة ، فأسقط اللوم كل اللوم على بدو بني هلال في تخريب المنطقة . فيفيد هذا الأخير بأنه في سنة ٤٤٣هـ " ظهرت في الجنوب التونسي الفرق الأولى لهذا الموج مصحوبة بعيالها وخيامها وإبلها وماشيتها حيث دشنوا نزولهم هناك بسلسلة من الكوارث والفظائع المرعبة في المواقع التي حل بها ركابهم " [٢٢]. ويذكر في موضع آخر أنه بدخول هؤلاء القيروان ، عم التخريب والتدمير والاكتساح سائر المدن والقرى التابعة لها، وانتشر الذعر والذهل والفتن المدلهمة في جميع المناطق التونسية ، فارتبكت أعمال السكان وضاقت حيلهم وطاشت عقولهم وماج بعضهم في بعض . ولم يتردد إزاء ذلك في وصف هجرة بني هلال الى أفريقية والمغرب وتمثيلها بغزوات الوندال التي اكتسحت الشمال الأفريقي في القرن الخامس ميلادي .[٢٣]

هذا وإن ذهبت أغلب الدراسات التاريخية الى القول بأن بدو بني هلال نتيجة لطبيعتهم البدوية كانوا أعداء للحضر ، وهم وفقاً لذلك المسؤولون عن دمار أفريقية وبلاد المغرب سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، فإنه قد برزت بعض الأعمال الحديثة – وإن كانت نزرة– تناولت دراسة البداوة والحضارة بموضوعية . وأكدت على أن دخول بني هلال الى أفريقية لم يكن السبب في دمار المنطقة وخرابها السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

وكما كان المستشرقون الأوائل أول من بادر الى دراسة تاريخ بلاد المغرب في العصر الوسيط وتحليله ، فإن المؤرخين المحدثين من المستشرقين خاصة أخذوا على عاتقهم دحض هذه الرؤى . ولعل آراء جون بونسي الباحث الفرنسي تعد من أهم الآراء التي أنصفت بدو بني هلال . ففي البداية يؤكد هذا الباحث على أن الاعتماد على نظرية ابن خلدون في إقرار هذه الظاهرة يعتبر خطأ فادحاً ، ذلك أن ابن خلدون بحكم كونه رجل دولة وبحكم انتمائه الى الأرستقراطية من جهة ، والتصاقه بالحياة المدنية الحضرية من جهة أخرى تناول موضوع البدو من منظرو عصر يدين البداوة مقحماً بدو بني هلال في هذه المشاهد . كما أن ابن خلدون كان قد كتب بعد مرور ثلاثة قرون على هجرة بني هلال ، وهي فترة كافية لوجود عدة تغيرات حتمية[٢٤] ، ليست بالضرورة ناتجة عن هجرة بني هلال. ويؤكد على ذلك بقوله أن المؤرخين المعاصرين لدخول بني هلال الى أفريقية أو الذين عاشوا في المرحلة التالية للهجرة (أي بعيدها) ، لم يتناولوا هجرة بني هلال بالجدة التي تناولها بها ابن خلدون[٢٥]. كما أنهم لم يذكروا أن بني هلال ، قد رموا النيران في المدن أو قطعوا الأشجار[٢٦]. وينتقد بونسي آراء مارسي وجوليان وغوتيه لاتخاذهم موقفاً سلبياً من الهلاليين اعتماداً على كتابات ابن خلدون مبرزاً عنصرية نظرياتهم .[٢٧]

إن آراء بونسي هذه تعد بحق إضافة في مجال دراسة أزمة أفريقية في القرن الخامس فتناقلتها أعمال حديثة أخرى أخص بالذكر منها أعمال كلود كاهين وجاك بيرك وايف لاكوست.

فكلود كاهين في رده على مقال بونسي " أسطورة الغزوة الهلالية " يتفق مع هذا الأخير مبرزاً أن تدهور ودمار أفريقية كان قد بدأ قبل قدوم بدو بني هلال الى أفريقية [٢٨]. ويتخذ ايف لاكوست الوجهة ذاتها لإبراز خطأ النظريات القائلة بمسؤولية بدو بني هلال في أزمة أفريقية في القرن الخامس . فلاكوست ينتقد المؤرخين لاعتمادهم على ابن خلدون في تفسير الأزمة. إذ يفيد بأنه لا يوجد في أي من مقدمة ابن خلدون ولا في غيره دراسة نظامية متماسكة (Systematique) للأزمة التي لاحظ ابن خلدون آثارها في القرن الثامن للإسلام. فالمؤلف لا يضم عرضاً منهجياً للأسباب العميقة لهذه الظاهرة المدمرة ، ذلك أنه يكتفي بوصف تتالي الاضطرابات والفوضى وقيام وسقوط العديد من المراكز السياسية . ولكن مسالة الأزمة لم تطرح والهجرة الهلالية لم تكن المحور الرئيسي ، وإنما طرحت ضمن أسباب الفوضى والاضطرابات.[٢٩]

ويؤكد ايف لاكوست على أن المؤرخين والدارسين المحدثين إضافة الى اعتمادهم شبه الكلي على ابن خلدون اسقطوا من حساباتهم الأحداث التي تعيق هذه النظرية أو تضعفها خاصة وأن في مؤلف ابن خلدون العديد من الأحداث والشواهد

المضادة لهذه الرؤية المدينة لبدو بني هلال [٣٠]. ويرى لاكوست أن هذه الرؤية هي أسطورة ليست من قبيل الصدفة بل غذيت في إطار الأيدلوجية الاستعمارية [٣١]. كما أنه يدحض ما يذهب إليه بعض الدارسين من أن دخول بني هلال أفريقية كان بمثابة غزوات المغول لبلاد المشرق ، فالفارق ينهما شاسع. كما يفند لفظة غزو ، فهي في رأيه لا تعبر حقيقة عن الوضع وعن تنقل القبائل العربية الهلالية منذ القرن الخامس وحتى القرن الثامن في أرجاء بلاد المغرب .[٣٢]

أما جاك بيرك فيتفق ايضاً مع بونسي وايف لاكوست ، وينتقد بدوره اعتماد المؤرخين على كتابات ابن خلدون الذي لم يعاصر أحداث القرن الخامس وكتب في مرحلة متأخرة. ويستدل بيرك على ذلك، بأن البكري الذي عاصر الأحداث لم يذكر سقوط القيروان إلا في سنة ٤٥٢هـ أي بعد الهجرة الهلالية بحوالي عشر سنوات. كما يذهب الى دحض الزعم القائل بخراب أفريقية الشامل والنهائي. إذ يذكر أن القيروان بالرغم مما تعرضت له من تدمير استطاعت في فترة لاحقة استعادة نشاطها وحيويتها الاقتصادية المعهودة .[٣٣]

ومثلما اعتمد المؤرخون العرب المحدثون على وجهات نظر استشراقية حول اتهام بدو بني هلال بتدمير إفريقية ، فانهم وللمرة الثانية نراهم يعتمدون على رؤى استشراقية فندت مزاعم تخريب بدو بني هلال لأفريقية ، ونفت عنهم الاتهام ، وبالإمكان الاستشهاد بأعمال عبد الله العروي وجميل أبو النصر وأبو القاسم كرّو ، والتي عمدت إلى دحض الأطروحات القائلة بأن دخول بدو بني هلال إلى أفريقية كان نقطة تحول سلبية في تاريخ المنطقة منتقدين المؤرخين والدارسين لعدم تمعنهم في الأحداث.

فالعروي يقدم تحليلاً لعوامل ومراحل انحلال الإمارة الزيرية مبرزاً أن وجود بني هلال لا يختلف عن وجود أية قوى بدوية بالمنطقة ، ((فالبدوي يحتاج إلى مراع وهذه محدودة في أرض المغرب ، فلابد للوافد أن يطرد من سبقه إليها ، وفي مرحلة لاحقة يضايق الاقتصاد الرعوي الزراعة والغراسة ، فتتعذر العودة إلى إنتاج زراعي وتفرغ القرى والمداشر ويتناثر السكان وتتباعد الأحياء ، وتحل الخيام محل الدور ، وتترتب عن هذه التطورات تحولات أخرى لا تقل خطورة مع انحطاط الإنتاج الزراعي وتناقص غلال الغرس ، وتقل الثروة العامة وتكسد التجارة ، وتسوء أحوال سكان المدن فتختنق هذه خاصة بعد أن قد نهبت وسلبت من ذخائرها أثناء الحروب والفتن ، وهذا ما حصل بالضبط للقيروان والقعلة وتاهرت)) [٣٤].

كما يفيد العروي بأن مراحل دخول بدو بني هلال إلى أفريقية ، وما صاحبه من اضطرابات وفوضى لا ينكرها المؤرخين ، ولكنهم يتعدون الوصف إلى الاتهام ، ويذكر أن هؤلاء المؤرخين لا يكتفون بالقول هذا ما يفعله البدو الرحل ، بل يؤكدون على أن هذا هو ما يفعله العرب حيثما كانوا رغم أنهم يعرفون أن أبن خلدون أو الادريسي يقول العرب ويعني بهم الأعراب أي البدو،ولكن الأغراض تدفع كتاب الاستعمار إلى استغلال الاشتراك في المعنى[٣٥] ، أما جميل أبو النصر ، فبعد أن يسرد وقائع المواجهة بين بدو بني هلال وبين الزيريين كما جاءت في المصادر العربية الأولى ، ينتقد كل من اتخذ من مؤلفات التيجاني و أبن خلدون مصدراً رئيسياً في دراسة أزمة أفريقية في القرن الخامس للإسلام [٣٦].

ويتخذ أبو القاسم كرّو وجهة من تقدم ذكرهما ، وأول ما يؤكده جسامة الخطأ الذي وقع فيه الدارسون لاعتمادهم بالدرجة الأولى في تحليلاتهم ونتائج أبحاثهم على أبن خلدون لإبراز مسؤولية بدو بني هلال في الأزمة التي عاشتها أفريقية في القرن الخامس [٣٧]. وأخذ كرّو على عاتقه إبراز اختلاط الأمر على أبن خلدون في تناوله لبني هلال ، وذلك من خلال تعميمه في إخباره ووصفه للخراب والدمار الذي شاهده وكأنه حدث كله من القبائل العربية والبربرية في القرن الخامس الهجري ، بالرغم من أن الكثير من هذه القبائل كانت لها أدوار إيجابية [٣٨] .

ولعله من المفيد القول ، بأن كرّو يعطي بعض العذر لأبن خلدون ، ذلك لأن المصادر السابقة له وقفت بذكر انتعاش المنطقة وازدهارها الاقتصادي عند القرن الخامس الهجري ، وأن مصادر القرن السادس أكدت على الفتن والحروب والنهب ، وفي سبيل إبراز عدم مسؤولية بني هلال في الخراب الاقتصادي – الذي أكد عليه بعض الدارسين اعتماداً على أبن خلدون – يذكر بعض الأحداث التي خربت أثناءها بعض أراضي أفريقية كالإربس – على سبيل المثال – وقفصة [٣٩].

وإذا ما يشير أبن خلدون إلى أن دخول القبائل العربية إلى الأراضي المغربية كان بهدف السيطرة على أفريقية وقاعدتها القيروان ، إذ يذكر أن المستنصر العباسي ((لما بعثهم إلى أفريقية عقد لرجالاتهم على أمصارها وثغورها وقلدهم أعمالها ، فعقد لموسى بن يحيى المرداسي على القيروان وباجة ، وعقد لزغبة على طرابلس وقابس ، وعقد لحسن بن سرحان على قسطنطينة))[٤٠]، فأن مسار الأحداث ينفي ذلك ، وإلا بماذا نعلل من أن مؤنساً بن يحيى قد بادر بالاتصال بالمعز بن باديس تاركاً أصحابه وراءه في برقة ، وتقديم خالص النصح له بعدم الاستعانة بالعرب الهلالية – عندما شاوره في ذلك – حتى لا ينفلت زمام أمره وهو المفوض بحكم القيروان قاعدة أفريقية من قبل المستنصر ، فيذكر أبن عذاري أن عرب بني هلال ((أقاموا بناحية برقة ومضت الأيام على ذلك مدة ، ثم قدم منهم مؤنس بن يحيى الرياحي على المعز)) [٤١]، فأكرمه وطلب منه تقريب المسافة بينه وبين القبائل العربية للاستعانة بها على خصومه بدو زناتة ومنافسيه على الحكم بني حماد [٤٢].

لذلك ، فالمتمعن في سير الأحداث هذه يتبين أن دخول بدو بني هلال إلى أفريقية لم يكن هدفه القيروان ، بل مستقراً جديداً لهم ، وقد كانوا يعيشون ضنكا في بلاد مصر ، ومهما يكن الأمر فإن المصادر تشير إلى أن المعز بن باديس عندما بلغه خبر بدو بني هلال استصغر شأنهم ، وعمد إلى استقطابهم ليكونوا فريقاً في جنده ، وقد يكون في هذا الأمر ما يفيد بأن الجند الزيري كان يمر بمرحلة حرجة ، فقد أُنهكت قواه وتقلص عدده بمرور الوقت لتواتر الصراعات السياسية في المنطقة مع زناتة ومع آل حماد ، حتى أن المعز بن باديس اشترى العبيد لتقاعس صنهاجة وأغدق عليهم الأموال فاجتمع له منهم ثلاثون ألف مملوك [٤٣].

لكن مشروع التآزر الزيري – الهلالي باء بالفشل ، إذ اعتذر مؤنس بن علي الرياحي عن ذلك لعدم إمكانية قيادة قبائل مختلفة الأهواء من جهة ، وكثرة العدد شديدة المراس من جهة أخرى [٤٤]، وأمام إصرار المعز بن باديس خرج مؤنس إلى الموضع الذي يقيم فيه أصحابه [٤٥]، وحشدهم للخروج إلى أفريقية.

كما أن نظرة المعز بن باديس المتعالية إلى قبائل بني هلال واستصغار شأنهم أمام أحد أبرز قادتهم مؤنس ، ((وكان سيداً في قومه)) [٤٦] ، كانت من أبرز الأسباب فيما يبدو لاندفاع قبائل بني هلال إلى أفريقية – وكانوا قد توقفوا قبلاً بطرابلس أو ببرقة – فما أن وصل مؤنس إلى إخوانه حتى دعاهم لدخول أفريقية مبيناً خطة امتلاكها وامتلاك قاعدتها القيروان فيما بعد ، وكأنه يهدف بخطته هذه إلى إضعاف السلطة المركزية عن طريق استقطاع أطراف مملكتها ، فيذكر أبن الأثير أن مؤنساً ((أخذ بساطاً فبسطه ثم قال لهم : من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه ؟ قالوا لا نقدر على ذلك . قال : فهكذا القيروان، خذوا شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى إلا القيروان فخذوها حينئذ)) [٤٧] .

وتدافعت القبائل العربية إلى مناطق أفريقية ، وما أن بلغ الخبر المعز حتى بادر بصد الهجوم وأسر أولاد مؤنس وعياله[٤٨] وأخوه [٤٩] ، وأرسل في طلب نجدة من أبن عمه صاحب القلعة القائد حماد ومن زناتة أيضاً ، فأرسل إليه الأول ألف فارس في حين أن مقدَّم زناتة المستنصر بن خزرون المغراوي الزناتي خرج إليه بنفسه ومعه ألف فارس من قومه [٥٠].

وكانت خطوة المعز هذه قد جعلت بعض شيوخ القبائل الهلالية يرضخون لطاعته ، فدخل عليه ((مطرف بن كسلان وفرج بن أبي حسان وزياد بن الدونية وفارس بن كثير وفارس بن معروف وهم من أمراء بني رياح وسادتهم)) [٥١] ، فأخرج إليهم المعز الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروط ووصايا وأعلموهم أن السلطان قد دفع عيالاتهم لهم وأخذوا عليهم العهود والمواثيق[٥٢].

إلا أن هذه الطاعة كانت مؤقتة ، ذلك أنهم ما أن ولوه ظهورهم حتى نكثوا العهد وأغاروا على البلاد وأفسدوا جهاتها[٥٣]، وكان هذا الاندفاع الهلالي نحو مناطق أفريقية البادرة لقيام حروب بينهم وبين السلطة الزيرية ، بدأت بمحاولات الزيريين الهجوم على القبائل العربية المستقرة بين قابس والقيروان ، وانتهت بمحاولاتهم للدفاع على مركز سلطانهم ((القيروان)) .

وبالرغم من اختلاف الروايات التاريخية حول عدد المعارك التي خاضها الزيريون ضد القبائل الهلالية وحول تاريخ وقوعها[**] فإنها تجمع على أن موقعة حيدران كانت الفاصلة ، فيذكر أبن الأثير – والنويري الذي أخذ عنه – أن بني زيري خاضوا غمار ثلاث معارك ضد بدو بني هلال ، ففي سنة (٤٤٢هـ) حال وصول بني هلال المنطقة ((احتفل المعز وجمع

عساكره فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلها رجالة ، وسار حتى أتى جندران [حيدران] وهو جبل بينه وبين القيروان ثلاثة أيام))[٥٤] ، وما أن دار القتال بينهم حتى انهزمت صنهاجة بالرغم من كثرة عدد جندها الذي أدهش بني هلال ، وكاد أن يفت في عضدهم لولا تشجيع مؤنس بن يحيى لهم ، فيفيد أبن الأثير بأنه ((لما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك ، وعظم عليهم ، فقال لهم مؤنس بن يحيى : ما هذا يوم فرار . فقالوا : أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الدروع والخوذ ؟ قال : في أعينهم ، فسمي ذلك اليوم (يوم العين) ، والتحم القتال واشتدت الحرب)) [٥٥].

وتُعزى هذه الهزيمة إلى ضعف الجبهة الداخلية للقوات الزيرية ، فصنهاجة نكاية في المعز وتعبيراً عن سخطها لاستبدالها بالعبيد ، اتفقت على الهزيمة ، ((وترك المعز مع العبيد حتى يرى فعلهم ويقتل أكثرهم .. فانهزمت صنهاجة وثبت العبيد مع صنهاجة فكثر القتل فيهم))[٥٦] ، وبالإضافة إلى موقف صنهاجة المبني على تضارب المصالح ، يرجع أبن خلدون هذا التخاذل في الجبهة الداخلية إلى ضعف العصبية بقوله ((انخذل بقية عرب الفتح وتحيزوا إلى الهلاليين للعصبية القديمة))[٥٧].

إن انهزام القوات الزيرية أمام بني هلال لم يفت في عضد المعز بن باديس فبادر هذا الأخير في السنة ذاتها – وفي يوم عيد الأضحى هادفاً مباغتة الهلاليين وهم يؤدون صلاة العيد – إلى جمع ((سبعة وعشرين ألف فارس ، وسار إلى العرب جريدة وسبق خبره وهجم عليهم وهم في صلاة العيد فركبت العرب خيولهم وحملت فانهزمت صنهاجة ، فقتل منهم عالم كثير))[٥٨]، وبالرغم من تكرار انهزام الجند الزيري أمام الهلاليين في الموقعة الثانية ، فإن المعز بن باديس خاض معركة ثالثة ضد الهلاليين إذ ((خرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير ، فلما أشرف على بيوت العرب وهو قبلي جبل جندران [حيدران] انتشب القتال واشتعلت نيران الحرب .. فانهزمت صنهاجة وولى كل رجل منهم إلى منزله وانهزمت زناتة وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً لم يسمع مثله ، ثم انهزم وعاد إلى المنصورية ...))[٥٩] . والجدير بالذكر أن نشوب هذه المعركة قبلي حيدران (شمال حيدران) يبين أن القبائل العربية كانت تزحف شيئاً فشيئاً نحو القيروان.

ولئن عّدد أبن الأثير ثلاث وقائع بين بني زيري وبين بين هلال ، فإن أبن عذاري بتعدد رواياته[***] وأبن خلدون اكتفيا بذكر موقعتين اثنتين فحسب ، فيذكر أبن عذاري أن المعز بن باديس أرسل سنة (٤٤٣هـ) لفيفاً من جنده بقيادة أبن شلبون وزكنون بن واعلان وزيري الصنهاجي لقتال الهلاليين ، فالتقى الخصمان يوم عيد الأضحى ((وانهزمت صنهاجة وقتل منها كثير))[٦٠] ، فخرج المعز بن باديس إليهم بنفسه يوم ثاني عيد الأضحى ((وانتشبت الحرب بين العرب وبينه ، فهزمته العرب وثبت المعز في طائفة من عبيده ثم عاد إلى المنصورية))[٦١].

وأبرز ما يفيدنا به أبن عذاري في ذكر الصدام الزيري – الهلالي ، وصفه للجند الزيري أيام العيد أثر الهزيمة ، فيقول ((وأما بنو مناد وجميع صنهاجة وغيرهم من القبائل ، فأنهم فروا وانتهبت العرب مضاربهم . ودخل العرب معسكر المعز السلطان ، فحازروه وفيه من الذهب والفضة وأمتعة والأسباب والأثاث والخف والكراع ما لا يعلم عدده إلا الله . وكان فيه من الأخبية وغيرها ما يتجاوز عشرة آلاف ومن الجمال نحو خمسة عشر ألفاً ومن البغال ما لا يحصيه قول ، فما خلص لأحد من الجند عقال فوقه ، وسلك أكثر الناس الجبل المعروف بحيدران ، فافترقوا فيه . ثم رجع بعضهم على بعض ، وليس عند أهل القيروان خبر بذلك ، إلا أنهم كانوا تحت توقع وتشوف ، فلما كان ثالث العيد ، قدم فارسان مع أبن البواب وهم قد غلبت عليهم الكآبة وكسوف البال وحالهم يغني عن السؤال ، وكثر أيضاً سؤال الناس عن السلطان ، فذكروا أنه في حيز السلامة ، فلم تك إلا ساعة حتى دخل قصره هو وولده ، ثم تساقط الناس بعده آحاداً وجموعاً ، وتخلف عن الوصول خلق عظيم ، فمنهم من علم خبره ومنهم من لم يعلم ، ثم ذكر أن العرب أخذوا خلقاً كثيراً من الصنهاجيين وغيرهم))[٦٢].

أما أبن خلدون ، فذكر أنه أثر وصول الخبر إلى المعز بتحرك بني هلال ((سرّح إليهم صنهاجة الأولياء فأوقعوا بها))[٦٣]. وبانهزام الجند الزيري في هذه المعركة الأولى استنجد المعز بابن عمه حماد بالقلعة وبالمستنصر بن خزرون الزناتي ، وأعدّ العدة لقتال بني هلال وزحف إليهم ((ولمّا تزاحف الفريقان انخذل بقية عرب الفتح وتحيزوا إلى الهلاليين للعصبية القديمة ،

وخانته زناتة وصنهاجة ، وكانت الهزيمة على المعز ، وفرّ بنفسه خاصة إلى القيروان ، وانتهبت العرب جميع ما خلفه من المال والمتاع والذخيرة والفساطيط والرايات وقتلوا من البشر ما لا يحصى ..))[٦٤].

ومهما يكن الأمر واختلاف الروايات حول عدد المعارك أو سني دورانها ، فإن معركة حيدران كانت الفاصلة ، إذ بها انتهت مرحلة الهجوم الزيري ، واكتفى المعز بعد ذلك بمفاوضة القبائل العربية الهلالية والتحصن بالقيروان . فموقعة حيدران على حد تعبير الشنتريني ، ((أوهنت بطشه وثلت عرشه وأرته البوار وضربت عليه الحصار وأحاط الأعراب بالقيروان يطؤون حريمها ويستعرضون راحلها ومقيمها ، حتى ماج بعضها في بعض وتبرأت منها كل سماء وأرض))[٦٥].

إذاً بانهزام الزيريين في حيدران (٤٤٢-٤٤٣هـ) ، بدات مرحلة جديدة في تاريخ أفريقية الزيرية ، فالمعز عاد أدراجه إلى القيروان متحصناً بأسوارها ، وتطلع بنو هلال إلى امتلاك مناطق أفريقية ((فكان كل من سبق إلى قرية سمّى نفسه لهم ليعلم غيره أنه سبقه))[٦٦] دون أن يجدوا أحداً يردعهم بما في ذلك السلطان الزيري . فهذا الأخير وكما يذهب أبن عذاري إلى القول ((خرج ... سابع عيد الأضحى بجنوده وخرج عامة القيروان معه فلم يتعد بهم المصلى))[٦٧]. واكتفى بعد ذلك بالاستقرار بالقيروان وتحصينها . ويفيد أبن عذاري بأن المعز بن باديس عمد إلى محاربة بني هلال بما يمكن أن نطلق عليه سياسة الأرض المحروقة محاكاة لما فعلته الكاهنة أثناء الفتح الإسلامي . فلقد أمر ((كافة الناس بانتهاب المزروعات المحيطة بالقيروان وصبرة ، فسر المسلمون بذلك وحسبوها من أرزاقهم وكان مصيرها مات قدر الله من فسادها وأكل البهائم لها)) [٦٨]. كما أمر بانتقال ((عامة أهل صبرة وسوقتها إلى القيروان ويخلوا الحوانيت كلها بصبرة وأمر جميع من بالقيروان من الصنهاجيين وغيرهم من المعسكر أن ينتقلوا إلى صبرة وينزلوا في حوانيتها وأسواقها . فارتج البلد لذلك وعظم الخطب واشتد الكرب ، ومدّ العبيد ورجال صنهاجة أيديهم إلى خشب الحوانيت وسقائفها واقتلعوها ...))[٦٩].

إن حصار الهلاليين للمعز بن باديس ومقتل عدد كبير من أهل القيروان من رقادة والمنصورية ، حدا بالمعز إلى مصالحة الهلاليين ((وأباح لهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء))[٧٠] . ويبدو أن مصاهرته لمؤنس بن يحيى من كبراء بني هلال كانت في هذا الأثناء كسباً لوده[٧١]. وبالرغم مما قد ينتج عن المهادنة بين المعز وبين بني هلال من هدوء ، فبعض المصادر تشير إلى أن الصراعات بين أهالي أفريقية وجموع الهلاليين لم تتوقف ، فلما دخل بنو هلال القيروان – على سبيل المثال – ((استطالت عليهم العامة ووقعت بينهم حرب كان سببها فتنة بين إنسان عربي وآخر عامي وكانت الغلبة للعرب))[٧٢].

واستمر الزحف الهلالي على المناطق الأفريقية ، وسقط العديد منها بأيديهم فاقتسموا البلاد سنة (٤٤٠هـ) . فكان لزغبة طرابلس وما يليها ولمرداس بن رياح باجة وما يليها ، ثم أعيدت القسمة من جديد ، فكان لبني هلال بن يونس إلى الغرب وهم رياح وزغبة والمعقل وجشم والاثبج والخُلط وسفيان . وتغلب عائذ أبن أبي الغيث على مدينة تونس وسباها . وملك أبو مسعود من شيوخهم بونة صلحاً [٧٣]، وتغلب محرز بن زياد على المعلقة إحدى ضواحي قرطاجنة[٧٤]، وسيطر بنو جامع من دهمان على قابس[٧٥]. كما تغلب العرب الهلالية أيضاً على أقاليم وأراضي شاسعة محيطة ببونة وعلى بوادي مرسي الخرز[٧٦]، وقسطنطينة[٧٧] وجاوروا قصور المنستير [٧٨].

وتزامن هذا الوضع ثورة الأطراف على السلطة الزيرية ، فاستقل عمال المناطق بمناطقهم ، فسيطر بنو خراسان على تونس سنة (٤٤٣هـ) ، وبنو الرند على قفصة ثم امتد نفوذهم على توزر ونفراوة وسائر أعمال قسطيلية[٧٩]. أما مدينة سوسة فملكها أهلها شورى بينهم . فيذكر التيجاني أن أهل سوسة خرجوا عن طاعة المعز بن باديس سنة (٤٤٥هـ) ، ((ومنعوه ما كانوا يحملون إليه من المال ، وقالوا : نحن أولى به لنذب به عن بلدنا ، وتوفيت أخت المعز عندهم فضموا أموالها وأبوا من توجيهها إليه)) [٨٠].

ولا مفر من القول بان استمرارية الصدام بين أهالي أفريقية وبين بني هلال من جهة ، وتهديد هؤلاء الأخيرين وتطلعهم للسيطرة على القيروان قاعدة أفريقية ، بعد أن سيطروا على العديد من الجهات الأخرى كان وراء اندفاع عدد من سكان القيروان والمناطق الداخلية إلى الاستقرار بالمناطق الساحلية كتونس وسوسة والمهدية[٨١]، وبلاد المغرب الأوسط في القلعة [٨٢].

فيفيد أبن الأثير بان المعز أشار على الرعية بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب[٨٣]، ثم انتقل هو بنفسه إليها سنة (٤٤٩- ٤٥٠هـ) في حماية أصهاره . ويذكر الشنتريني أن المعز عندما اشتد حصار الهلاليين له بالقيروان ((أعطى الدية وناشدهم التقية واشترط المهدية وقد كان نظر في ماله وفكر في من بإزائه من أقياله ، فزف إلى زعمائهم بناته ، وكن اللآلي وأمني الغالي . فأصبحوا له أصهاراً وقاموا دونه أنصاراً ، فلما استحكم بأسه وأهمته نفسه استجاش من قبله ، واحتمل حزمه وثقله وخلي الملك لمن حماه وحمله . وجاء أصهاره فكانوا بحيث يسمعون نئيمه ويمنعونه مما عسى أن يكيده ويضيمه ، حتى بلغ المهدية فأقام بها))[٨٤].

وبخروج المعز بن باديس من القيروان دخلتها العرب وانتهبتها – كما يذهب المؤرخون الأوائل إلى القول – فيذكر أبن الأثير أنه في سنة (٤٤٩هـ) نهبت العرب القيروان[٨٥]. ويفيد أبن عذاري بان العرب انتهبت القيروان وخربتها[٨٦]. أما أبن خلدون فيذكر ذلك بقوله ((وجاب العرب فدخلوا البلاد واستباحوها واكتسحوا المكاسب وخربوا المباني وعاثوا في محاسنها وطمسوا من الحسن والرونق معالمها واستصفوا ما كان لآل زيري)) [٨٧].(****)

وبسقوط القيروان سنة (٤٤٩-٤٥٠هـ) في يد بني هلال عمد عمال المناطق للانتزاء بعمالاتهم . فخرجت صفاقس عن دائرة السلطة الزيرية سنة (٤٥١-٤٥٢هـ) وتبعتها قابس في سنة (٤٥٤هـ)[٨٨]. كما خرجت تونس وقفصة وسوسة وبنزرت وطبرية وزغوان وشقبنارية عنها أيضاً . وأضحت أفريقية مجزأة إلى إمارات صغيرة (تشبه دول الطوائف ببلاد الأندلس) ، تقلد بعضها القادة المحليون وهادنوا بني هلال وعملوا على مصالحتهم نظير أتاوة تدفع لهم لكف عاديتهم [٨٩]. وتقلد بعضها الآخر بنو هلال ولم يبق بأيدي بني زيري إلا ما ضمه سور المهدية [٩٠].

وبقيت السلطة الزيرية مقوقعة في المهدية بعد وفاة المعز بن باديس سنة (٤٥٤هـ) ، ولكن تميم بن المعز خليفته (٤٥٤ -٥٠١هـ) ، بادر باسترجاع المناطق التي كانت خرجت عن سلطانهم ، وعمل جاهداً للحفاظ على مركز سلطته بالمهدية . فكان أن فتح سوسة سنة (٤٥٥هـ) . وهزم حمو بن ومليل البرغواطي الذي حاصر المهدية سنة (٤٥٦هـ)[٩١]. ثم أرسل جنوده في سنة (٤٥٨هـ) إلى تونس ، فحاصروا بها بني خراسان حتى قدموا فروض الطاعة مجدداً [٩٢]. كما أرسل عساكره إلى القيروان لتأديب قائد بن ميمون الصنهاجي – الذي دخل في لواء الناصر بن علناس بالقلعة – ففر منها أبن ميمون إلى القلعة ، إلا أن سرعان ما عاد إلى القيروان بعد أن اشتراها من العرب [٩٣]. ثم دخل تميم قابس سنة (٤٧٠هـ) ، وفيها ماضي بن محمد الصنهاجي وقد وليها بعد أخيه إبراهيم [٩٤] .

وتواصل استرجاع تميم بن المعز للمدن الأفريقية وإعادتها إلى سلطان الإمارة الزيرية . فخرج تميم بالجند الزيري إلى قابس سنة (٤٧٤هـ) ، وحاصرها ((حصاراً شديداً وضيق على أهلها وعاث عسكره في بساتينها المعروفة بالغابة فأفسدوها))[٩٥]. كما خرج إلى صفاقس سنة (٤٧٩هـ) وحاصرها ((وأمر الأمير الذي جعله مقدم الجيش أن يهدم ما حول المدينة ويحرقه ويقطع الأشجار))[٩٦]. كما فتح في سنة (٤٩٢هـ) جزيرتي جربة وقرقنة [٩٧]. لكن هذه المدن لم تخلص لتميم فخرجت عليه ، مما اضطره لإعادة توجيه جنده إليها ، فحاصر سنة (٤٨٦هـ) قابس وفتحها (٤٨٩هـ) (٩٨)، وحاصر صفاقس ودخلها سنة (٤٩٣هـ)[٩٩]، ثم حاصر جربة (٤٩٩هـ)[١٠٠].

إن دور بني هلال في أحداث أفريقية لا يقف عند تدمير بعض المناطق وإتاحة الفرصة أمام العمال للاستقلال بعمالاتهم ، بل كان هؤلاء قد عمدوا للاستفادة من بلبلة الوضاع بأفريقية ، فناصر بعضهم السلطة الزيرية في حين حالف بعضهم الآخر مناوئيها ، فيشير أبن عذاري إلى أن قبائل الأثبج وعدي من بني هلال كانت قد خرجت تحت لواء بلقين صاحب القلعة

الصنهاجي لمحاربة زناتة سنة (٤٥٠هـ)[١٠١] . أما في سنة (٤٥٦هـ) خرجوا في زمرة حمو بن ومليل البرغواطي صاحب صفاقس وناصروه في حركته ضد الزيريين ، في حين كانت زغبة ورياح مع تميم بن المعز [١٠٢].

والجدير بالتنويه ، أن رياح وزغبة كانتا باستمرار تحت لواء الأمير الزيري بأفريقية ، فيشير أبن عذاري إلى أن هاتين القبيلتين قد تصدتا لحركة الناصر بن علناس لدخول أفريقية ، وفي سنة (٤٥٧هـ) كُسر عسكر الناصر بن علناس ، وكان قد خرج في عدد كبير من صنهاجة وزناتة وعدي والأثبج ((فلقيتهم رياح وزغبة وسليم ، فانهزم الناصر وقتل من أصحابه خلق كثير)) [١٠٣]. ويذكر أبن الأثير تفاصيل هذا الصراع بين الأمير الزيري تميم بن المعز وبين الناصر بن علناس بالقلعة ودور بني هلال فيه ، مبرزاً تآلف بدو بني هلال جميعاً مع بعضهم البعض حسب مصالحهم . فيذكر أن تميم عندما تأكد مما بلغه من خبر حشد الناصر بن علناس – وقد كان يذمه – صنهاجة وزناتة وبني هلال ليحاصر المهدية ، عمد إلى استقطاب أمراء بني رياح من بني هلال وأخبرهم خبر أبن علناس ومن معه من بني عمومتهم مبيناً لهم أن خروج الناصر إلى أفريقة ليس هدفه المهدية فهذه الأخيرة محصنة لا يمكن طرقها ، بل هو يقصدهم ، فما كان من أمراء بني رياح إلا طلب المعونة منه ، فمدهم بالمال والسلاح ، فأرسلوا إلى من مع الناصر من بني هلال يخوفونهم منه ، فهو إذا ما بلغ هدفه يهلكهم بمن معه من زناتة وصنهاجة ، فاتفقوا على الانخذال عن الناصر . كما انخذلت زناتة عن الناصر أيضاً ، ولم يبق في جند هذا الأخير إلا بعض بني هلال وبعض زناتة إضافة إلى صنهاجة . وعندما التقت العساكر ((انهزمت الطائفتان وتبعتهم عساكر الناصر منهزمين ، ووقع فيهم القتل . فقتل فيمن قتل القاسم بن علناس أخو الناصر ، وكان مبلغ من قتل من صنهاجة وزناتة أربعاً وعشرين ألفاً . وسلم الناصر نفر يسير ، وغنمت العرب جميع ما كان في المعسكر من مال وسلاح ودواب وغير ذلك ، فاقتسموها على ما استقر بينهم ، وبهذه الواقعة تم للعرب ملك البلاد ، فإنهم قدموا في ضيق وفقر وقلة دواب ، فاستغنوا وكثرت دوابهم وسلاحهم وقل المحامي عن البلاد)) [١٠٤].

ولم تثن هذه الهزيمة الناصر بن علناس عن الاستعانة مرة أخرى بالعرب من بني هلال ، فيذكر أبن عذاري أنه حاصر سنة (٤٦٠هـ) الأربس ومعه الأثبج وافتتحها وأمن أهلها وقتل عاملها . كما حاصر بهم في السنة نفسها القيروان ودخلها ، ولكنه لم يبق بها خوفاً من غدر الهلاليين ، فتركها سنة (٤٦١هـ)[١٠٥].

والجدير بالتنويه ، أن اجتماع كلمة بعض قبائل بني هلال كرياح وزغبة – على سبيل المثال وقد كانت باستمرار في نصرة الأمير الزيري ، هو أمر تحكمه مصلحتهما المشتركة . غير أن هذا التحالف تعرض سنة (٤٦٦-٤٦٧هـ) إلى أزمة تسببت في انفراط عقد التآزر بينهما . فطردت رياح زغبة من أفريقة وأشترت القيروان من الناصر بن علناس [١٠٦].

صفوة القول حيث إن محاولات تميم بن المعز الرامية إلى إعادة المناطق الخارجة عن سلطانه إلى دائرة نفوذه كانت أمراً مستحيلاً لتعدد الجبهات المعادية كبني هلال والعمال وآل حماد ، فإنه ضاعف من الاهتمام بالمهدية قاعدة حكمه الاقتصادية وبنشاطاتها البحرية فالمتمعن في المصادر العربية الأولى يخلص إلى أن الزيريين ضاعفوا من اهتمامهم بالنشاط البحري بعد دخول قبائل بني هلال إلى أفريقية ، وتبعاً لهذه الوجهة تسهب المصادر العربية في ذكر تحركات أساطيلهم في محاولة لاسترجاع السيطرة على المدن الساحلية – التي كانت قد خرجت عن طاعتهم – ومشاركتها في أحداث البحر المتوسط . في حين أن حديثها عن النشاط البحري قبل هذا التاريخ كان عرضاً ، حتى يخال المتصفح لهذه النصوص أن البحرية في عهد بني زيري لم تلق عناية إلا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

لذلك ، عمد بعض المؤرخين المستشرقين – على وجه الخصوص – إلى ربط الصلة بين حادثة دخول بني هلال إلى أفريقية وبين توجه بني زيري إلى البحر . فيفيد شارل أندريه جوليان نقلاً عن جورج مارسي بأن بني زيري أولوا عناية خاصة بالبحر إثر انتقالهم إلى المهدية ، أي أبان دخول بني هلال أفريقية . ويتعجب من ذلك باعتبار أن هؤلاء من البرابر الجبليين [١٠٧] . أما روجي إدريس ، فأنه يعتقد بأن عظمة بني زيري البحرية تزايدت أكثر فأكثر في عهد أمراء المهدية ، لارتباط مصير هؤلاء بالبحر [١٠٨].

إن هذه الرؤية التي تؤكدها المصادر لم تلفت نظر المؤرخين العرب المحدثين قبيل تناولها من قبل المستشرقين ، فكان اهتمامهم بها لاحقاً . ولعل من أبرز من تأثر بهذه الرؤية حسين مؤنس والسيد عبد العزيز سالم . إذ يذهب الأول إلى القول بأن تميم بن المعز ((عندما اقتصر سلطانه على المهدية أتجه بصره إلى البحر . فاهتم ببناء الأساطيل واستخدم الملاحين في القيام بحملات بحرية على سواحل صقلية للغارة والعودة بالغنائم . وأنه من غرائب المقادير أن يتحول أولئك الصنهاجيون الصحراويون إلى البحر ، ليحاولوا أن يعوضوا بالمغامرة في مياهه ما خسروا من بلادهم بالدواخل)) [١٠٩]. أما الثاني فيشير إلى أنه من أبرز نتائج دخول بني هلال إلى أفريقية انحسار ملك الإمارة الصنهاجية في أفريقية إلى الساحل وبالتالي عناية الصنهاجيين بشؤون البحر [١١٠].

ولا يستبعد في أن دخول بدو بني هلال إلى أفريقية وسيطرتهم على مناطق الداخل الذي تزامن وخروج العديد من المناطق بإمرة عمالها عن السلطة الزيرية ، وتهديد بني هلال أخر عاصمة الزيريين السياسية ((القيروان)) ومحاصرتها ، دفع ببني زيري إلى اللجوء إلى مدينة المهدية الساحلية ، المدينة التي كانت ملاذاً لأوليائهم الأوائل الخلفاء الفاطميين عندما اندلعت ثورة أبن كيداد سنة (٣٣٦هـ.

إن انتقال بني زيري إلى الساحل بعد فقدان المناطق الداخلية وحرمانهم من عائدات التجارة البرية البعيدة المدى ، فرض عليهم توجيه عنايتهم بالبحر ، لكن الدراسة المتمعنة والمتأنية للنصوص العربية يستشف منها أن هذا التوجه البحري لأفريقية الزيرية لم يكن وليد الهجرة الهلالية ، بل سابق لهذا التاريخ ، وعليه فأن إبراز خلفية النشاط البحري لبني زيري يحتم علينا تتبع مراحله منذ تولي بني زيري حكم أفريقية سنة (٣٦٢هـ)..

في البدء لابد من الإشارة إلى أن موقع أفريقية على الضفة الجنوبية للمتوسط ، فرض عليها منذ القدم الاتجاه إلى النشاط البحري . فوفق علاقة التجاذب بين ضفتي المتوسط اضطلعت أفريقية بدور على قدر من الأهمية في تجارته على وجه الخصوص ، فكانت مركزاً وسطاً بين بلدان شمال المتوسط وبلدان جنوب الصحراء . كما كانت حلقة وصل بين هاتين المنطقتين وبين بلاد المشرق.

وازدادت أهمية النشاط البحري بأفريقية بعد إرساء الدولة الإسلامية قواعدها في بلاد المغرب بدء بعهد حسان بن النعمان (٧٨-٨٦هـ) ، الذي تمت في ولايته وولاية خليفته موسى بن نصير (٨٦-٩٦هـ) السيطرة على المدن الساحلية وإنشاء قاعدة بحرية في تونس . واستمر الاهتمام الإسلامي بالبحر الأبيض المتوسط في الجهة الغربية منه ، وتوج بافتتاح جزيرة صقلية سنة (٢١٢هـ.

قصارى القول ، – إن الموقع الاستراتيجي لأفريقية على الضفة الجنوبية للمتوسط كان عاملاً جد مهم في توجهها البحري ، فهي إن لم تغز تغزى . والمصادر التاريخية زاخرة بالتحركات البحرية بين بلاد أفريقية وبين بلدان شمال المتوسط . ففي فترات قوة السلطة الحاكمة وبالذات في عهد الأغالبة والفاطميين كانت البحرية الأفريقية تعمل جاهدة للسيطرة على الجزر المتوسطية [١١١]. أما في فترات الضعف فإنها تكتفي برد هجمات الأساطيل الأوربية [١١٢].

وفي العهد الزيري لم تحد أفريقية عن هذه الوجهة ، إلا أنها قد شابها بعض الضعف . فيشير جوتين إلى أن انتقال الفاطميين إلى مصر قد رافقه انتقال البحرية من أفريقية إلى مصر [١١٣]. ويسهب أرشيبالد لويس في تفسير هذا الحدث بقوله أن الفاطميين بانتقالهم إلى مصر حملوا معهم أسطولهم . ولم يبقوا لبني زيري نوابهم سوى عدد قليل من السفن[****] تساعدهم على حماية أملاكهم بالجهة الغربية ضد أمويي الأندلس [١١٤]. ويصرح بأنه ربما عمد الخلفاء الفاطميون في مصر إلى إبقاء أسطول أتباعهم الزيريين في تونس ضعيفاً لعدم إمكان القيام بثورة ضدهم . ولو جاز القول ، فانه يوضح سر تدهور بحرية شمال أفريقية في ذلك الحين [١١٥]. ويؤكد روجي إدريس على أن أغلبية قطع الأسطول الأفريقي رافقت في ذلك الحين الفاطميين إلى مصر ، وأن انشغال الزيريين بحملاتهم العسكرية البرية في بلاد المغرب أضعف قوتها البحرية[١١٦].

ويضاف إلى فكرة انتقال أغلب قطع الأسطول الأفريقي إلى مصر ، استقلال صقلية عن أفريقية ، إذ عزل المعز لدين الله الفاطمي صقلية عن دائرة حكم بني زيري ، وولى عليها بني أبي الحسين الكلبي (الكلبيين) [١١٧]. فبخروج صقلية عن دائرة السلطة بأفريقية جعل هذه الأخيرة تفقد السيطرة على أهم المواد الأولية لصناعة وإنشاء السفن والأساطيل إلا وهي الأخشاب على وجه الخصوص . ولقد كانت هذه الأخشاب تأتي باستمرار من صقلية إلى أفريقية في عهد الفاطميين (٢٩٦-٣٦٢هـ) . ومما يؤكد ذلك قول الأستاذ الجوذري بأن الأساطيل الفاطمية بأفريقية كان يُستغل في إنشائها الخشب الصقلي [١١٨] .

وكما فقدت أفريقية مموﻻً مهماً لإنشاء السفن باستقلال صقلية ، فإنها فقدت أيضاً مالطا وقوصرة – وهما ممولان آخران لإنشاء السفن – ، فالأولى كانت كثيرة الأخشاب ((يدخلها النشاؤون للسفن ، فإن العود فيها أمكن أن يكون)) [١١٩] . والثانية ((مقطع للخشب الجيد يحمل منها إلى صقلية)) [١٢٠]. وعلاوة على فقدان بني زيري الجزُر التي تمول البحرية الأفريقية بالخشب – المادة الضرورية لبناء السفن – ، فقدوا أيضاً مراكز إنتاج المعادن ، فالنصوص تشير إلى أنه بضعف السلطة المركزية الزيرية وتقلص أراضيها ، فقدوا السيطرة على مجانة وبونة المشتهرتين بمعدن الحديد [١٢١].

وبالرغم من هذه المعوقات التي اعترضت النشاط البحر ي في عهد بني زيري ، فأن النصوص تفيد بان حكام بني زيري لم يقفوا مكتوفي الأيدي ، وأظهروا عنايتهم بالبحر منذ توليهم السلطة . فيذكر أبن عذاري أن أبا الفتوح بن زيري بن مناد حالما تولى السلطة واستوثق له الأمر سنة (٣٦٥هـ) ، أمر عامله على أفريقية عبد الله بن محمد الكاتب ((أن يقيم أسطولاً بالمهدية معدة من الرجال والسلاح)) [١٢٢]. ولئن امتنع النواتية عن الانخراط في هذا الأسطول ، فأن أبا الفتوح أمر عامله أن يأخذهم بالشدة وألزمهم بذلك قهراً فسجن منهم الكثير [١٢٣].

والجدير بالذكر أن المصادر العربية الأولى تصمت عن ذكر مبادرات بني زيري في مجال البحرية ، باستثناء أبن عذاري الذي لا يبخل على الباحث ببعض المعلومات . فيذكر أنه في سنة (٤١٤هـ) ، وعلى أثر تهديدات خليفة بن وروا الزناتي – المسيطر على طرابلس – لمدن أفريقية الساحلية ، وإخراجه المراكب ، أمر المعز بن باديس ((بالاحتفاز في إصلاح القطائع وعمارة دار الصناعة ، وأخذ في إنشاء العُدد الحربية ، فأنشيء منها في المدة القريبة ما لم يتم مثله في الزمن البعيد)) [١٢٤].

وإن كان تهديد خليفة بن وروا دافعاً قوياً لتحرك المعز بن باديس والاهتمام بالأساطيل البحرية ، فإن تهديدات الروم لجزيرة صقيلة كانت ذات تأثير أكبر . ذلك أنه بالرغم من أن صقلية قد خرجت عن دائرة السلطة بأفريقية منذ خروج الفاطميين إلى مصر واستقلالها عنها ، فإنها اعتبرت على الدوام جزيرة حاجزة على غرار الدولة الحاجزة – Buffer –State – تحمي أفريقية من غارات بلدان شمال المتوسط.

ففي سنة (٤١٦هـ) ، حالما بلغ المعز بن باديس أن الروم ملكوا جزيرة قلورية المجاورة لجزيرة صقلية وشرعوا في بناء ميناء استعداداً لوصول مراكبهم وعددهم ((جهز أسطولاً يضم أربعمائة قطعة وحشد فيها وجمع خلقاً كثيراً . وتطوع جمع كثير بالجهاد ورغبة في الآخرة . فسار الأسطول ، فلما قرب من جزيرة قوصرة – وهي قريبة من بر أفريقية – خرج عليهم ريح شديد ونوء عظيم فغرق أكثرهم ولم ينج إلا اليسير)) [١٢٥].

إن هذه الكارثة التي حلت بالأسطول البحري الزيري ، لم تثن المعز بن باديس عن مواصلة اهتمامه بالبحر في محاولة للحفاظ على صقلية ، ففي سنة (٤٢٧هـ) ، وصل بعض أهل صقلية إلى المعز وشكوا له تبدل الأوضاع بصقلية أثر الصراع الذي دار بين أفراد أسرة أبي الحسين الكلبيين حول السلطة منذ (٤٠٥هـ) ، إضافة إلى ثورة أهل صقلية على أمرائهم لسوء تصرفهم ومماﻻتهم أهل صقلية على حساب الأفريقيين تارة ومماﻻة الأفريقيين على حساب الصقليين طوراً ، وكان آخرها أخذ الأكحل أحمد بن يوسف الخراج من أملاك أهل صقلية . فأثر قدوم هذه الجماعة من صقلية – وقد قدمت فروض الطاعة للمعز شريطة تدخله وإلا يسلمون صقلية للروم – أرسل المعز بن باديس معهم أبنه عبد الله في جيش لمحاصرة الأكحل . إلا أن بلبلة الأوضاع واختلاف أهواء أهل صقلية بين مساعد للمعز ومعارض له ، وقيام ثورة بينهم تسببت في انهزام جيش المعز ، وقتل منهم ثمانمائة رجل فرجع عبد الله أبن المعز ومن بقي من جيشه في المراكب إلى أفريقية [١٢٦] .

إن هزيمة الجيش الزيري بصقلية وتركه أمر الجزيرة تتقاذفها الفتن سنة (٤٢٧هـ) ، لم ينه انشغال الزيريين بأمور صقلية والتدخل في شؤونها كلما استنجد بهم أهل صقلية . ففي سنة (٤٤٤هـ) ، وعلى أثر اتصال أبن الثمنة أحد رجالات الجزيرة – وقد وهنت قواه العسكرية أمام القائد أبن نعمة المعروف بابن الحواس – بالفرنج في مدينة مالطا ((وقال : أنا أملككم الجزيرة ، فقالوا : إن فيها جنداً كثيراً ولا طاقة لنا بهم ، فقال : أنهم مختلفون وأكثرهم يسمعوا قولي ، ولا يخالفون أمري . فساروا معه في رجب سنة أربع وأربعين وأربعمائة فلم يلقوا من يدافعهم ، فاستولوا على ما مروا به في طريقهم ، وقصد بهم إلى قصر يانة فحصروها ، فخرج إليهم أبن الحواس فقاتلهم فهزمه الفرنج فرجع إلى الحصن . فرحلوا عنه . وساروا في الجزيرة واستولوا على مواضع كثيرة . وفارقها كثير من أهلها من العلماء والصالحين . وسار جماعة من أهل صقلية إلى المعز بن باديس ، وذكروا له ما الناس فيه الجزيرة من الخلف وغلبة الفرنج على كثير منها ، فعمر أسطولاً كبيراً وشحنه بالرجال والعُدد . وكان الزمان شتاء فساروا إلى قوصرة فهاج عليهم البحر فغرق أكثرهم ولم ينج إلا القليل)) [١٢٧].

إن هذه المجهودات ((المحتشمة)) في الواقع في المجال البحري لبني زيري لا علاقة لها – حسب اعتقادي – بتواضع إمكانيات المنطقة البحرية ، ولا بعزوف هؤلاء عن النشاط البحري بسبب خلفيتهم التي زُعم بأنها خلفية بدوية ، ولكنها تعود في المقام الأول إلى تبعية جزيرة صقلية ، وهي إحدى أهم الجزر التي تراقب النشاط البحري ، بين غربي المتوسط وشرقيه إلى الفاطميين بمصر . لذلك ، وما أن نزل بحكام الجزيرة بعض الضعف الناتج عن مشاكلها الداخلية وعن عجز الفاطميين عن مساندتهم ، حتى بادرت أفريقية إلى مساندتهم ، وحيثُ أن هذه التدخلات اقترنت بأحداث القرن الخامس الهجري كثرت تبعاً لذلك المعلومات ذات العلاقة بهذا القرن حتى أصبح المرء يعتقد أن محور أفريقية أصبح بحرياً صرفاً ، وأن التوجه هذا كان بسبب دخول قبائل بني هلال إليها.

فحالما تولى الأمير الزيري تميم بن المعز بن باديس أمر أفريقية ، سعى للمحافظة على مركز السلطة الجديد ((المهدية)) من تهديدات الطامعين . فهزم سنة (٤٥٦هت) أبن حمو الذي حاصر المهدية [١٢٨]. ووقف سنة (٤٥٧هـ) حائلاً أمام تهديدات الناصر بن علناس للمهدية في جمع من صنهاجة وزناتة وبني هلال [١٢٩]. كما استطاع صد مالك بن علوي الذي حاصر المهدية سنة (٤٧٦هـ) [١٣٠].

ولم يكتف تميم بن المعز بالمحافظة على قاعدة سلطانه ((المهدية)) فحسب ، بل عمل جاهداً على استرجاع ما خرج عن سلطانه من المدن الساحلية ، فافتتح سوسة (٤٥٥هـ) [١٣١]، ثم دخل قابس التي تعد ميناء بلاد الصحراء سنة (٤٧٠هـ)[١٣٢]، وفتح صفاقس (٤٧٩هـ) ،[١٣٣] ثم أعاد حصارها براً وبحراً سنة (٤٨٨هـ) [١٣٤]، وملك قابس سنة (٤٨٩هـ) [١٣٥] . وفي سنة (٤٩١-٤٩٢هـ) فتح جزيرتي جربة وقرقنة[١٣٦] . واستمرت محاولات تميم بن المعز لإبقاء المدن الساحلية تحت سلطانه فكلما تخرج إحداها عن طاعته يسارع إلى استعادتها [١٣٧].

ولم تقف مساعي تميم عند المحافظة على المحور البحري ، الذي انتقلت إليه السلطة الزيرية والسيطرة على مدن الساحل الأفريقي فحسب ، بل تعدتها إلى درء الخطر عنها ، فأخرج سنة (٤٥٦هـ) أسطولاً لمواجهة مراكب شرقية قد وصلت صفاقس فأفسدوها [١٣٨]. أما في سنة (٤٩٨هـ) هزم الأسطول الزيري من قدم على المهدية من الرومانيين في ثمانية وعشرين مركباً وقتلوا عدداً كبيراً منهم [١٣٩].

ومن نافلة القول ، أن بني زيري لم يتوجهوا إلى المجال الحيوي البحر نتيجة وجود بدو بني هلال ، ولكن قبل دخول هؤلاء أفريقية . غير أن المشاكل التي ظهرت في المنطقة أثر تغريبة بني هلال ، إضافة إلى ازدياد الاهتمام بالبحر بعد دخولهم كان وراء ما ذهب إليه العديد من الباحثين من أن وجود بدو بني هلال بالمنطقة كان الدافع للتوجه نحو البحر.

ويكفينا دليلاً على أن البدو لم يكونوا سبباً رئيسياً في التوجه نحو البحر ، ذلك أن البدو كانوا عنصراً سكانياً (معروفاً) مهماً بأفريقية (الداخل) في عهد بني زيري . وقد كان هؤلاء الأخيرين مهديين باستمرار من قبل بدو زناتة ، وكانت بينهم

مواجهات عدة . ولكنهم لم ينسحبوا إلى المناطق الساحلية ، بل عمدوا للقضاء على تحركات بدو زناتة في الداخل تارة بإخراج الحملات العسكرية إليهم وأخرى باستمالتهم.

كما أن الأحداث التاريخية تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن المزاعم التي تؤكد على أن البدو لا يهتمون إلا بالداخل لجلهم بالنشاط البحري وعدم درايتهم بأهميته ، وبالتالي محاربة القوى السياسية الموجودة به ودفعهم نحو الساحل يشوبها الإرجاف . ففي المغرب الأقصى – على سبيل المثال – لم يكتف بدو صنهاجة (المرابطون/الصحراويون) بمد نفوذهم على مناطق الداخل فحسب ، وإنما مدوا أنظارهم إلى بلاد الساحل ومنها سعوا إلى عبور المتوسط إلى الأندلس وصقلية أيضاً [١٤٠].

ومهما يكن سبب التوجه الزيري إلى الساحل والاهتمام بالنشاط البحري في القرن الخامس الهجري ، فأنه لا يفوتنا القول بأن هذه الوجهة على أهميتها لم تأت أكُلها . إذ استمرت البحرية الزيرية ضعيفة وازدادت تقلصاً . ولم تكن حالة الوهن التي أصابت البحرية الزيرية بمنأى عما أصاب البحرية الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط بشقيه الغربي والشرقي من ضعف منذ أوائل القرن الخامس [١٤١].

فلقد شهد المتوسط في هذه المرحلة تغيرات عميقة . فالقوى البحرية انتقلت من الضفة الجنوبية إلى الضفة الشمالية . فيذكر أرشيبالد لويس أن خروج الجزر الغربية للمتوسط عن السلطة الإسلامية ، إضافة إلى هجمات البيزنطيين على صقلية بدء من سنة (٤١٧هـ) ، ثم ما بين (٤٣٠– ٤٣٥هـ) قد أفقد البلدان الإسلامية قواها البحرية لصالح المسيحيين . ويذهب إلى القول بان للطبيعة الجغرافية التي تمتعت بها المناطق والمداخل الشمالية دوراً في ذلك ، ((ذلك أن مجموعة الخلجان والمداخل المائية الواقية تقع – كما لاحظ المقدسي – على الساحل الشمالي للبحر المتوسط)) [١٤٢]. ويضيف بأنه ((ربما كان الرخاء الوفير الذي أصاب العالم الإسلامي هو سبب تدهور بحريته . ويبدوا أن العالم الإسلامي أخذ ينسى ماضيه في المغامرة البحرية ، حيث استقرت به الأحوال وعمه الرخاء)) [١٤٣].

وعاصر هذا الوهن في القوى البحرية للضفة الجنوبية للمتوسط انتعاش ونمو الجمهوريات الإيطالية جنوة وبيزا والبندقية، ولقد ((أقلعت أساطيل جنوة وبيزا لأول مرة ولمدة قرنين لتنازع البحرية الإسلامية القوة والسيطرة في المياه الغربية)) [١٤٤]، فهاجمت السواحل المغربية بالذات ((المهدية)) (٤٨٠هـ) ، ولم تنسحب إلا بعد أن اضطر تميم بن المعز إلى تقديم الأموال نظير ذلك . فيذكر أبن الخطيب أنه ((في سنة ٤٨٠ نازل تميم أهل جنوة وبيشة في ثلاثمائة مركب تحمل ثلاثين ألف مقاتل فحاصروا المهدية ودخلوها ودخلوا زويلة ، فأحرقوا الديار وهتكوا الأستار وعملوا القتال والإسار ، ولجأ تميم إلى القصر المنسوب إلى المهدي ، فاعتصم به إلى أن وقع الصلح بينه وبين الروم على أن يدفع لهم مائة ألف من الذهب . فدفع ذلك ما بين ناض وأواني ذهب وفضة . وأقلعوا بذلك وبأموال الناس ونسائهم)) [١٤٥]. واستمر نشاط المدن الإيطالية في البحر ((بازدياد قوة البندقية البحرية في مياه البحر الأدرياتي ، وفيما أخذ يدعيه الملاحون الإيطاليون من حقوق بحرية . ثم ظهرت إلى جانب هذا الاندفاع البحري الإيطالي اتجاهات أخرى هجومية من قبل بلاد غرب أوربا (نورماندي وفرنسا).

نخلص من هذا إلى أن التوجه الكلي في العصر الزيري الثاني نحو البحر كان بمثابة البحث عن طوق نجاة ، يُخرج الإمارة والمنطقة من أزمة قرعت طبولها منذ خروج الفاطميين من المغرب . وعلى الرغم من المساعي الجادة التي ما انفكت الإمارة تقوم بها ، غير أن المشاكل الداخلية التي ألمحنا إليها والتي حصرتها الأعمال العربية الأولى (أبن خلدون على وجه الخصوص) في دخول بدو بني هلال أفقدت المنطقة توازنها الكلي.

فالأزمات الداخلية التي شهدتها أفريقية منذ انتقال الزيريين من عاصمتهم آشير إلى القيروان كانت متنوعة . وقد يجد المرء صعوبة في فهم الكثير من تفاصيلها التي اقتصرت على تأكيد التخريب البدوي أو شذبه . كما أن التسلح بالفرضيات الأخرى (نظرية الذهب) على سبيل المثال والتي اقترحها بعض المستشرقين تظل على الرغم من أهميتها قليلة الفائدة ، إذ أنها ربطت هذه الأزمات بمؤثرات خارجية دون الالتفات إلى آلية مجتمع أفريقية الداخلية.

عليه ، وحتى تكون هذه الفرضيات أكثر نفعاً رأيت إن الحديث عن إمكانيات أفريقية الاقتصادية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري هو الحديث عن إمكانيات المنطقة المتنوعة في القرون السابقة لدخول بدو بني هلال.

إن العودة لأوضاع أفريقية الاقتصادية في القرن الخامس الهجري ، هي محاولة قصدت بها عقد مقارنة بين ما كانت عليه المنطقة قبل تغريبة بني هلال وما أمست عليه بعدها . فمن خلال هذه المقارنة البسيطة قد نتوصل إلى تحديد بعض الملامح الحقيقية لهذه الأزمة .

ثبت الهوامش :

١- ابن الاثير عز الدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ، الكامل في التناريخ ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ج٨ ، ص٥٦.
٢- المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٥٦.
٣- المراكشي ، عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تقديم وتحقيق وتعليق : محمد زينهم محمد عزب ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ، طرابلس ، ١٩٩٤ ، ص١٨٩.
٤- النويري ، شهاب الدين أحمد ، نهاية الإرب في فنون الأدب ، المكتبة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٣، ص٣٤٧.
٥- ابن خلدون ، عبد الرحمن ، المقدمة ، دار الجيل ، د ت، ص١٦٦.
٦- المصدر نفسه ، ص١٦٥ .
٧- أبن خلدون ، عبد الرحمن ، العبر ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، بيروت ، ١٩٧١ ، ج٦ ، ص٣١.
٨- العروي ، عبد الله ، مجمل تاريخ المغرب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٧ ،ج٢ ، ص٩١.
٩- غوتيه ، ماضي شمال أفريقيا ، تونس ، ١٩٧٩ ، ص٣٠٢ .
١٠- المرجع نفسه ، ص٢٩٨.
١١- جوليان ، شارل أندريه ، تاريخ أفريقيا الشمالية ، تعريب : محمد مزالي والبشير ابن سلامة ، تونس، ١٩٧٨ ، ج٢ ، ص٩٧
١٢- المرجع نفسه ، ص٩٨ .
١٣- إدريس الهادي ، روجي ، الدولة الصنهاجية ، الرباط ، ١٩٨٩ ، ج٢ ، ص ٢٤٥.
14- Idris (H.R) " De La Realite De La Catastroph Hilalienne, Annales, Tome 23/1/1968. p 395
١٥- لويس ، أرشيبالد ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، تعريب : أحمد محمد عيسى، النهضة المصرية، القاهرة ،١٩٦٠ ، ص٣٦٢ و٣٨٥.
١٦- بوفيل ، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ترجمة ، الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز ، منشورات جامعة قار يونس ، بنغازي ، ١٩٨٨ ، ص١١٧.
١٧- مؤنس ، حسين ، تاريخ المغرب وحضارته ، العصر الحديث للنشر ، بيروت ، ١٩٩٢ ، ج١ ، ص٦٢٩.
١٨- حسن ، حسن علي ، الغزو الهلالي للمغرب –أسبابه ونتائجه ، المجلة التاريخية المصرية ، مج٢٤ ، ١٩٧٧ ، ص١٠٣ .
١٩- المرجع نفسه ، ص١٣٩.
٢٠- عبد الحميد ، سعد زغلول ، المغرب الكبير ، دار النهضة العربية ،بيروت، ١٩٨١ ،ج٢،ص٤٢٦.
٢١- عوض ، السيد حنفي وصديق محمد المهدي ، قرية بني هلال بين المسار التاريخي والواقع الاجتماعي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٧، ص٦٠.
٢٢- العلوي ، التقي ، "أصول المغاربة الهلاليون بالمغربين الأدنى والأقصى" ، مجلة البحث العلمي ، المعهد الجامعي للبحث العلمي ، جامعة محمد الخامس ن المغرب ، ع٣٥، ١٩٨٥ ، ص٣٩١.
٢٣- العلوي ، المرجع السابق ، ص٣٩٢ ، ٣٩٤ .
24- Poncet (J), "Prospente Et Decadence Ifrikiyenne" Ct, Tome 9-10, 1961, p232. Poncet " Le mythe de la CatastropheHilalienne" Annales,Volume 22, 1967, p1100.
25- Poncet, " Le mythe de la CatastropheHilalienne" p1100.
26- (Poncet, " Prospente Et Decadence .." p233.
27-Poncet, " Le mythe de la CatastropheHilalienne" p1100.
28- Cahen (C), " Quelques Most Sur Les Hilaliens Et LeNomadisme" Journal Of The Economic and Social History Of Orient, Vol9, 1968, p130
29- La Coste (y), Ibn Khadon…, p87.
٣٠- المرجع نفسه ، ص٨٨ ، ١٠٧.
٣١- المرجع نفسه ، ص١٠٣.
٣٢- المرجع نفسه ، ص٩٥.
33- Berque(J)," Du Nouveas SurLes Bani Hilal ", Studia Islamica,N36, 1972,p100,103.
٣٤ ـ العروي ، عبد الله ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٩٥.
٣٥ ـ المرجع نفسه ، ج٢ ، ص٩٦-٩٧.
٣٦- Abu Nasr Jamil , A History of the Maghrib in the Islamic period , Cambridge University press , Cambridge , New York , 1990 , p 70 .
٣٧ ـ كرّو ، أبو القاسم ، "بنو هلال وأوهام المؤرخين" ، دراسات في التاريخ والتراث ، دار المعارف للطباعة والنشر ، مؤسسة سوسة ، تونس ، ١٩٩١ ، ص٢٨-٢٩.
٣٨ـ كرّو ، أبو القاسم ، "من دمر قرطاجة وقفصة" ، دراسات في التاريخ والتراث ، دار المعارف للطباعة والنشر ، تونس ، ١٩٨٨ ، ص٣٧.
٣٩ـ المرجع نفسه ، ص٤١ ، ٤٤.
٤٠ ـ المصدر السابق ، ج٦ ، ص٤١ – ٤٢ ، يذكر أبن خلدون أن اسم أحد رجالات بني هلال هو موسى بن يحيى المرداسي ، والأرجح أن أسمه مؤنس بن علي الرياحي لأن كل من أبن عذاري وأبن الأثير ذكر أسمه مؤنساً ، وهما أقرب عهداً لحدث الهجرة من أبن خلدون ، ولذا اعتمدت الاسم الذي وضعاه فيما بعد.
٤١ ـأبن عذاري ، أبو العباس أحمد ، البيان المغرب ، في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، جـ١ ، ص٢٢٨ .
٤٢ ـالمصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٢٨.
٤٣ ـالنويري ، المصدر السابق ، ص٣٤٤ ، أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٥٥.
٤٤ـ أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٨٨-٢٨٩.
٤٥ـ يذكر النويري أنهم كانوا في طرابلس ، نهاية الأرب ، ص٣٤٤ ، في حين أن أبن عذاري يذكر أنهم كانوا ببرقة ، البيان المغرب، ج١ ، ص٢٨٨.
٤٦ـ المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٨٨.
٤٧ـ أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٥٦.
٤٨ـ أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٨٩.
٤٩ـ أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٢.
٥٠ـ المصدر نفسه ، ج٦ ، ص٣٢.
٥١ـ النويري ، المصدر السابق ، ص٣٤٥.

٥٢- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٨٩.
٥٣- النويري ، المصدر السابق ، ص٣٤٥ ، أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٨٩ .
(*)لا نجد في المصادر تاريخاً محدداً لدخول بني هلال المنطقة ولا المعارك التي نشبت بينهم وبين الزيريين ، فكل مؤرخ يعتمد تاريخاً معيناً ، فمنهم من يدون الأحداث سنة (٤٤٢هـ) ، ومنهم من يدونها (٤٤٣هـ) ، وبالتالي فأن التواريخ التي أدرجتها ليست من وضعي بل هي حسب طرح المؤرخين الذين اعتمدت عليهم أي حسب النصوص.
٥٤- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٥٦.
٥٥- المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٥٦.
٥٦- المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٥٦.
٥٧- أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٢.
٥٨- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٥٦.
٥٩- المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٥٦.
** يذكر أبن عذاري من خلال رواية أبن شرف وقعة واحدة في حين يذكر من خلال رواية أبن الصلت وقعتين ، البيان المغرب ، ج١، ص٢٨٩-٢٩٢.
٦٠- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٩٢.
٦١- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٩٢.
٦٢- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٩٠.
٦٣- أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٢.
٦٤- المصدر نفسه ، ج٦ ، ص٣٢.
٦٥- أبن بسام ، الشنتريني ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، مج٢ ، سم ٤، ص٦١٤ .
٦٦- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٠.
٦٧- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٩١.
٦٨- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٩١.
٦٩- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٩١.
٧٠- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٥٦.
٧١- لئن ذكر أبن خلدون أن مصاهرة المعز بن باديس لمؤنس قد تمت منذ دخول هذا الأخير على المعز سنة (٤٤٢هـ) . فإن سير الأحداث تبين أن المصاهرة تمت بعد هذا التاريخ ، ذلك أن المصادر لا تشير من قريب ولا من بعيد إلى وجود مثل هذه العلاقة . وإلا لما وقع بينهما صراع دامي بعد ذلك ، وبينهما وشائج القربى والمصاهرة ، أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣١ . ويؤكد الشنتريني على أن المصاهرة تمت (٤٤٩هـ) . الذخيرة ، مج٢ ، قسم ٤ ، ص٦١٤.
٧٢- أبن الأثير ، الكامل ، ج٨ ، ص٥٦ . أبن عذاري ، البيان المغرب ، ج١ ، ص٢٩٣ . كما يفيد أبن عذاري أنه في مرحلة لاحقة (٤٥٢هـ) ، تقاتلت هوارة والعرب بالقيروان كما تقاتل العرب وأهل تقيوس سنة (٤٥٣هـ) . البيان المغرب ، ج١ ، ص٢٩٤ ، ٢٩٥.
٧٣- أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٣ –٣٤.
٧٤- المصدر نفسه ، ج٦ ، ص٣٣٦.
٧٥- المصدر نفسه ، ج٦ ، ص٣٤٠ ، ٣٤١.
٧٦- الادريسي ، محمد بن محمد الشريف ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٦٤ ، جـ١ ، ص٢٩١.
٧٧- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٦٥.
٧٨- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٨٢.
٧٩- أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩.
٨٠- التيجاني ، عبد الله ، رحلة التيجاني ، تقديم حسن حسني عبد الوهاب ،تونس، ١٩٥٨ ، ص٢٨-٢٩.
٨١- أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٣.
٨٢- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص١٠١.
٨٣- المصدر نفسه ، ج٨ ، ص٥٦.
٨٤- الشنتريني ، المصدر السابق ، مج٢ قسم ٤ ، ص٦١٤.
٨٥- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٥٦.
٨٦- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٤.
٨٧- أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٤.
*** إذا ما أجمع هؤلاء على أن سنة (٤٤٩هـ) كانت السنة التي خربت فيها القيروان ، فأن البكري ألصقهم بأحداث الهجرة (توفي ٤٨٧هـ) ، ينفرد بذكر أن القيروان ((سبيت وأخليت ولم يبق فيها إلا ضعفاء أهلها سنة (٤٥٢هت) ، أي بعد الهجرة بحوالي عشر سنوات . المسالك والممالك ، ج٢ ، ص٦٧٨.
٨٨- أبن خلدون ،العبر ، ج٦ ، ص٣٢٦.
٨٩- أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩.
٩٠- المصدر نفسه ، ج٦ ، ص٣٢٧.
٩١- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٩.
٩١- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص١٠٤ . أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٩.
٩٢- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص١٠٤ . أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٢٧.
٩٣- أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٢٨.
٩٤- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص١٣٠.
٩٥- المصدر نفسه ، ج٨ ، ص١٩٥.
٩٦- المصدر نفسه ، ج٨ ، ص١٤٤.
٩٧- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٠٢.
٩٨- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص١٩٤.
٩٩- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٠٣.
١٠٠- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٤ . النويري ، المصدر السابق ، ص٣٤٧.
١٠١- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٩٩.
١٠٢- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٩٩.
١٠٣- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص١٠١-١٠٢.
١٠٤- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٩-٣٠٠.
١٠٥- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٠٠.
١٠٦- جوليان ، شارل أندريه ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص٩٨-٩٩.
١٠٧- إدريس ، الهادي روجي ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٤٥.
١٠٨- مؤنس ، حسين ، المرجع السابق ، ج١ ، ص٦٠٧ . ولقد تجاهل مؤنس أن بني زيري هم من الفرع الثاني من صنهاجة ، هم من صنهاجة الشمال : الحضر.
١٠٩- سالم ، السيد عبد العزيز ، المغرب الكبير ، الإسكندرية ، ١٩٦٦ ، ج٢ ، ص٦٧١-٦٧٢.

١١٠- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٠ ، ٢٠٩ ، أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٥ ، ص٢٥٣ ، أبن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص٨٤ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠.
١١١- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٠٠.
112-(Goitein . Mediterranean Society – Economic Foundations , - University of California Press –Berkeley , Los Angeles , London , Vol 1 , 1967 , p 32 .
**** لا تشير النصوص العربية إلى أن الفاطميين عند خروجهم إلى مصر قد رافقهم الأسطول . ذلك أن المعز قد خرج براً . ولكن الأرجح أن هذه الأساطيل الأفريقية الموجودة بمصر كانت قد خرجت إلى مصر قبل هذا التاريخ (قبل خروج الخليفة المعز إلى مصر) . كما أن صمت المصادر عن ذكر أساطيل أفريقية تعبر المتوسط في عهد بني زيري يحيلنا إلى التسليم بذلك ، خاصة وأن أبن باديس قد عمر القطائع أثر تهديده من قبل خليفة بن وروا في طرابلس سنة (٤١٤هـ).
١١٣- لويس ، أرشيبالد ، المرجع السابق ، ص٣١٢.
١١٤- المرجع نفسه ، ص٣٥٣.
١١٥- إدريس الهادي ، روجي ، المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٤٥.
١١٦- أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣١٧ . وفي هذا الإطار يذكر شوقي ضيف أنه كان حرياً أن يضيف المعز صقلية إلى بلكين لأنها بعيدة عن مصر ، ولن يستطيع نجدتها بسرعة لا هو ولا عقبه ، وأيضاً فإنها تعد امتداداً لأفريقية في البحر المتوسط وهي التي فتحتها وأدخلت بها سكانها والإسلام وحضارته . فكان ينبغي أن يتركها لبلكين . ضيف ، شوقي ، عصر الدول والإمارات – ليبيا ، تونس ، صقلية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص١٢٨.
١١٧- الجوذري ، سيرة جوذر ، تونس ، ١٩٨٧ ، ص١٠٢ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ١٣٥ ، ١٣٦.
١١٨- البكري ، أبو عبيد ، المسالك والممالك ، تحقيق دوسلان ، مطبعة أدولف جوردن ، الجزائر ، ١٩١١ ، جـ١ ، ص٤٨٧.
١١٩- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٤٨٨.
١٢٠- أبن حوقل ، محمد بن علي ، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت ، ص٧٧ ، ٨٤.
١٢١- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٩.
١٢٢- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٩٩.
١٢٣- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٧٠.
١٢٤- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص٣٢٣.
١٢٥- أبن الأثير ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص١٥٧ – ١٥٨.
١٢٦- المصدر نفسه ، ج٨ ، ص١٥٨.
١٢٧- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٩.
١٢٨- النويري ، المصدر السابق ، ص٣٥٠ ، ٣٥١.
١٢٩- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٠٠.
١٣٠- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٢٩٩ ، النويري ، المصدر السابق ، ص٣٤٩.
١٣١- أبن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٣٢٨.
١٣٢- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٠٠.
١٣٣- النويري ، المصدر السابق ، ص٣٥٨.
١٣٤- المصدر نفسه ، ص٣٥٩.
١٣٥- المصدر نفسه ، ص٣٦٠.
١٣٦- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣.
١٣٧- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٣٠٠.
١٣٨- المصدر نفسه ، ج١ ، ص٣٠٢-٣٠٣.
١٣٩- أبن عذاري ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٠٨.
١٤٠- يشير عبد الله العروي إلى أن ضعف الخلافتين الفاطمية والعباسية قد تزامن وضعف أفريقية ، وكانت الخلافتان قد هُددتا أثر نجاح الحملة الصليبية الأولى واحتلال بيت المقدس (٤٩١ – ٤٩٣هـ) ، وتزامن هذا التدهور انتعاش العالم الأوربي . العروي ، عبد الله ، مجمل تاريخ المغرب ، ج٢ ، ص٩٨-٩٩.
١٤١- لويس ، أرشيبالد ، المرجع السابق ، ص٣٢٣.
١٤٢- المرجع نفسه ، ص٣٢٣.
١٤٣- لويس ، أرشيبالد ، المرجع السابق ، ص٢٩٥.
١٤٤- أبن الخطيب ، لسان الدين محمد بن عبد الله ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام ، تحقيق ليقي بروفسال ، دار الكشوف ، بيروت ، ١٩٦٥ ، جـ٣ ، ص٧٨.
١٤٥- لويس ، أرشيبالد ، المرجع السابق ، ص٢٩٥ .